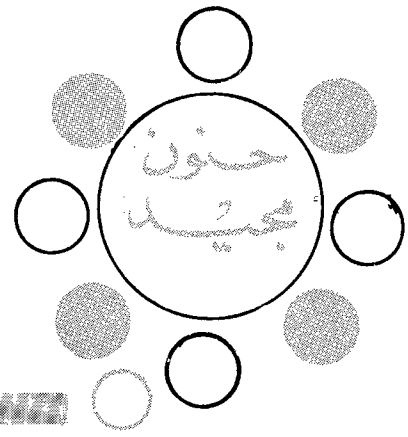

الأرض

تأبط عنق الحصان الذي لا يزال عرفه نافراً وقرّب أذنه من فمه وهمس: «لا تقلق، سنموت معاً».

انداحت إلى انفه رائحة الأرض في صفحة رأسه حين كان قبل قليل يتمرغ عليها فهمس مجدداً: «لا أحب رائحة قدر هذه».

وكما لو انه يعرف مأزقه، عاد الحصان الأدهم القائم في غمرة الشمس صافناً، مرسلاً بصره في المدى القريب.

عاف الرجل حصانه، كما لو أنه لم يغمره قبل قليل بعطف صميمي، تقدمه قليلاً ومدّ بصره، تحت ظلّ يده، نحو المدى البعيد. كان امتداد الأرض تحت أشعة الشمس الفضية شاسعاً يتلوى على ارتفاع وانخفاض يشمل أجزاء كثيرة من الأرض وكأنها تعاني، بصمت ثقيل، دفين، من آلام.

كل شيء يحيط في مدى السمع والبصر هادئ يحبل بالصمت، حتى الهواء ركد في قيعان الفضاء المترامي، وأصبح لا يدعب ذرة تراب. ولأن الأشياء تعيش الآن في وحدات منفصلة - هكذا فكر - دون أن تكون يوماً متداخلة ومتضامنة: الماء في صميم التراب، والنبت ينبثق من قلب الأرض، والهواء ينفذ في الأشياء أو يعشش فيها، فإن الرجل تلبّس بصمت مطبق، موحش، له وطء الحديد البارد على الصدر. وخامر الرجل، لحظة، شك في وجوده، لكنه كمن يغامر وهو على صورة من العناد - أغدق نوعاً من اليقين على موقفه جعل قدميه تسحقان تحت ثقل متزايد الطبقة السبخة وتنغرسان فيها. ولحظة اكتشف أن طبقة الأرض تتهافت تحت قدميه كالهشيم، إمتعض وقال بصوت مجلجل مجنون: «سادرة، لا تتكشفين إلا عن سوء، ولكن والله لا مفر لك منى».

وحنى قامة مديدة كانت قبل ثوان تشخص كالرمح، وامتدت يده تلتهم ذرات التراب التي امتصت ماءها الشمس، وجعل يفركها بين أصابعه محدقاً بنهم فيها وهو يقول: «حبلى ولكنك تكذبين».

قلّب بصره في الأرجاء القريبة والبعيدة هنا وهناك، محاولاً الالتحام ولو شعورياً مع حركة تنبض بالحياة؛ طائر في الفضاء يخفق بجناح، حيوان يدب، إنسان يمتد ظله على الأرض، غير أنه لم يزدد إلا شعوراً بالوحدة فالتجأ إلى حصانه ثانية، وكان هذا قد برك على الأرض، وطوق عنقه بذراعه وغيّب رأسه بحزن فيه. كاد الوقت يمتد عليه وهو يهبط برأسه تحت مستوى رأس الحصان الساكن نحو الأرض، لولا أنه رفع، برفق، رأسه وحدق ملياً في عينيه اللامعتين، ودون أي شك في فقه كلامه قال: «أنت ذكي. تفهم أننا متشاركان لذلك فأنت حزين» وقبّل غرة الحصان.

كان الحصان يمتد، صابراً كريماً دون أن ينال منه، ولو ظاهرياً، عطش أو جوع. كان ساهماً لا يقتل الحزن نفسه إنما كان شجاعاً ليخفي عذاباته، وكان رغم آلامه مطمئناً لأنه لا يزال في كنف صاحبه، الأمر الذي جعل الرجل يهتز كلما زفر هذا أو حمحم. وبمزيد من الحنان الخاص، ذلك الحنان الذي يكون على وشك أن ينضب معينه لسبب من الأسباب التي قد تتعلق بحياة الإنسان، مرّر الرجل يده يُمسّد ظهر الحصان المثقل بهدوء تام، ودون أن يقوى على رفعها ناخ عليه مستمعاً لصوت أنفاسه الواطئة غير المنتظمة. وإذ عاد الصدى يملأ أذنيه، مرة أخرى كما حدث مرات من قبل:

«الأرض ميتة»

«اننا راحلون قبل أن يقتلنا الظمأ»

«عش على عنادك، أنت لوحدك، فقط».

شبّ واقفاً وقد نفرت أوتار رقبته وانفتل نحو الأرض قريباً من الشجرة التي مدّت اذرعاً مجردة تتضرع إلى السماء وجعل يحفر من جديد.

وبقوة تنادت فتجمّعت في الساعدين كان الحفر يغوص في بطن الأرض ولكن دون جدوى. مسح الرجل العرق الذي أغرق وجهه بطرف كوفيته الملقاة إلى جانب الحفرة ورفع بصره إلى السماء، امتد نحو أعلى نقطة فيها، وكانت صافية زرقاء ممتدة بعيدة المنال.

تناول «مسحاته» وبعزم أقوى، فيه غضب مرّ وعنيد، كان الحفر يتوالى والتراب الجاف يتناثر على الجانبين، يكاد يغطي قامته.

زفر الحصان زفرة جافة وحمحم دون صدى فارتعد الرجل ومدّ نحوه عنقه فالفاه يتململ راكداً دون أن يستطيع الوقوف.

تسلق بهوس حفرته حتى اقترب منه، وضع يده على عرفة ثم باليد الأخرى أنشأ يربت على ظهره. تململ الحصان ثانية ثم استعان بجهد ضعيف مخبوء فنهض على قوائم راجفة لا تكاد تحمل الجسد المعلق فوقها. حدق الرجل، بهيئة التأمل فيه وهدر: «بلا زاد أو شراب منذ ثلاثة أيام. كلانا على هذا،

ولكن من يصدّق أني أقوى منك » وبسط راحة يده اليمنى وطبطب على جنبه:

« هيا تحرك، لا زلت حياً، انفض عن نفسك غبار الكسل، هيا، هيا ».

ورفع الحصان قائمة مرتخية تقدمت إلى الأمام خطوة قصيرة ثم بعد خطوات وفي الخطوة الأخيرة، استدار. ووقف يحدق في عيني صاحبه بنظر فاتر يقول:

« كفّ عني ».

لم يرد هذا أن يفهم ما قاله الحصان فتقدم منه:

« أنت لا تفهم أكثر مني. أنت قوي بما فيه الكفاية. تحرك، ساحلب هذه العاهرة حتى آخر قطرة ماء. انها حبلى أنت لا تدري، ولعلك لا تفهم كثيراً ».

ولم يردّ الحصان بغير اطراقة ثقيلة هوت برأسه نحو الأرض التي لا تكاد تثبت قوائمه عليها، في حين لم ينقطع صوت الرجل يردد بوتيرة صوت بشري جماعي:

« لقد تركوا الأرض، كانوا يظنون أنها ميتة ولا رجاء فيها ولكن الأرض لا تموت. هم يعرفون ذلك ولكنهم جبناء، أنذال. كل شيء يموت إلاّ الأرض. أنت، أنا، الشجرة، نموت، لكن الأرض لا ».

استدار الحصان نصف استدارة ثم تحرك باتجاه وهو يسمع:

« أنت ترى انك قوي. لقد أشرفت عليك يوم انزلقت من بطن أمك قبل سنوات ست، ما أن سقطت حتى نهضت واستويت. وكنت أقول هذا هو اختياري الوحيد، ومنذ أن نشأت حتى الآن لم أرك ضعيفاً بائساً مثل الآن. ما أشد حزني عليك، بل ما أشد سخطي، هل أنت تخذلني مثل أولئك الجبناء؟ ».

مع حركة الحصان هنا وهنا استعاد الرجل جزءاً من نشاطه مغذياً نفسه بأمل ظل يطاوح اليأس هادراً مدوياً لا يستكين ثانية حتى يهدر من جديد.

استدار نحو حفرته، أطل عليها يتأملها من خلال صورة عبر عنها بكلمات جافة برمة وقلقة:

« لا شك انك تشبهين قبراً »

قبل أن يلجها، وكانت مثل فم كبير أدرد جفّ اللعاب فيه.

غرز مسحاته بقوة في الوسط فغاصت في التراب الذي انثال إلى جانبٍ ثم تواصل الحفر.

كانت المسحاة لا تهبط إلا لترتفع دون أن يحس الرجل بالقروح التي عادت تتفتح على دم جديد بعد أن لامسها الشفاء في الليل. كان الألم لا يصل روحه وانما تجدد بالكفين القويتين بعدُ. وبما أن اليدين تعملان الآن فإن الالم تخدر لدرجة تسمح بالعمل لساعة قادمة أو ساعتين: « ثلاثة أيام من الحفر المتواصل وانتِ لا تستيقظين. جففتِ؟ هه؟ لا، لا، ستدرّين. يوماً واحداً آخر أو يومين وتدرّين. ينزّ ضرعك مثلما ينز ضرع بقرة حلوب. أنا أعرفك جيداً. لن تكوني غزيرة مثلما ستكونين عليه بعد يومين، ولكنك قاسية كشأنك أبداً ».

وأثناء حفر لم تهن الأرض خلاله ولم يترطب لسان المسحاة مرة واحدة، وكان العرق يسيل من قمة الرجل نحو أسفله وينحدر نحو القاع، ارتفعت في صدر الرجل حمّى حقد مرّ فصعّد نظرة مجنونة نحو الشجرة الساكنة وصرخ بها:

« أنت يا أيتها البلهاء المتضرعة، الساكنة سكون الأموات، الماء يأتي من الأرض. اهتزي قليلاً، حركي جذورك علها تفتح باب الماء ».

ثم حين نفد صبره، وكانت الشجرة بلهاء حقاً ترفع أذرعاً خشبية نحو السماء، صعد نحوها وطوقها بذراعيه وجعل يهزها بعنف:

« أنتِ يا مَنْ كنتِ خضراء متمايلة تغنّين مع الطيور وترقصين مع الريح ولا تسكنين إلا عند الفجر، تموتين الآن؟ اتدركين ذلك أم أنك في خدر الموت؟ اراهن لو أن لك قدمين لكنت الآن مع أولئك الأنذال الغادرين، وإلا لما كنت صماء جرداء لا تُلجئين طيراً ».

ولم تكن الشجرة لتسمع ما يقول انما كانت لفرط جفافها تردد صدى الرجال والنساء والأطفال وهم يلغطون بلغط الرحيل وتصور له حالتهم التي لا تزال تهتز أمام عينيه:

« شهور ونحن ننتظر المطر. شهور حتى جفت الأرض ومات الزرع ونفق الحيوان »

« الآن نحن في حكم الموتى. لا حلّ لنا سوى الرحيل ».

« منذ عرفناك وأنت عنيد مثلما ثور ».

« لا تقف في طريقنا. زرعنا الأرض بالحفر ولم تنجب قطرة ماء ».

وحرر الرجل نفسه دون أن يرمي حصانه بنظرة ما، ذلك أنه ما أن يحس بخيبة من شيء حتى يفكر بأن الأشياء جميعاً تخونه، ولكنه ودون أن يستسلم، إنما كأنه اتخذ من ذلك دافعاً لمواصلة عمله، هبط مرة أخرى في حفرته وأمسك بمسحاته وطعن بلسانها الحاد عمقها.

في هذه الأثناء أحسّ أن هشاشة الأرض قد تحولت إلى شيء آخر، شيء كان يحسه عندما كانت الأرض حية قبل شهور، فسال خيط من اللعاب في فمه لا يدري من أين جاء لفمه الذي جف تماماً ولم يسعفه بقطرة ماء واحدة يبلّ بها راحتي يديه اللتين أكلهما رمح المسحاة. هتف عالياً:

« ها أنت تسمعين. بدأت تستيقظين. أنا أعرفك جيداً مثلما أعرف هذه الشجرة العابرة التي لم تمت مثلما لم أمت أنا أو الحصان ».

ورقى بصره إلى حصانه الذي كان قد نسيه فترة ما فزحف اليه رعبه السابق حين شاهد الحصان يترنح لا يقوى على الوقوف، غير أنه في غمرة فرحه وتصاعد أمله عاد فنسي حالة الحصان فأخذ يطعن بطن الأرض ويثقبها بحثاً عن عرق الماء الذي غاب.

والرجل وهو في فورة عمله الذي نسي من خلاله دماءه الجديدة التي سالت وتيبست على أصابعه وباطن يده، سمع سقطةً

ثقيلة صمّاء، التفت على أثرها فشاهد حصانه مرمياً على جنبه ورأسه يفترش الأرض دون أن يقوى على تحريكه. كانت نظرة الحصان غائمة وحركة قوائمه واهنة واهية لا تكاد تعبّر إلا عن هامشيه مخدرة. هتف الرجل بحصانه من فوق رأسه الطريح: - «الآن أنت تخونني؟ في هذه اللحظة التي لا ريب في سعادتها؟ ساعة واحدة ويأتيك الماء».

ولما كان الحصان مخدراً وقد جثم على جسده ثقل كبير، فقد تقرفص الرجل أمامه وجعل يطوف بأصابعه على جسده الذي صار هزيلاً وخشناً أخيراً، وهمس:

«أنت تسمعني. ساعة واحدة ويأتيك الماء. ستعود عافيتك إليك. سأبحث لك عن طعام، ثم نقوم نزرع الأرض من جديد. سيعود إليها من عافها. ستزدهر مثلما كانت قبل سنين. أنت تسمعني أم أنت أصم الآن بحيث لا يرف لك حتى جفن؟».

واشتدّ رعب الرجل حين بدأ يسمع شخير الحصان وتدفق نَفَسِه على شكل دفعات متدفقة، واشتد رعبه أكثر حين لاح له أن الحصان هالك لا محالة وأن الموت يرفرف الآن بأجنحة خافقة سود. سحب يده عليه، توقفت عند مرتَفَع النفس ومنخفضه فانخرط بالبكاء. اهتز ببكاء جارف حاد عميق مثلما هو نهر ينهد بعد احتباس. وحقاً كان الرجل يشعر أن البكاء يصعد فيه من الأسفل حتى الأعلى، ويصعد به من حالة بالشعور بالألم إلى أخرى ثم يقذف به في حالة من الشعور بالخدر مثيل للخدر الذي يعقب التعب الشديد حين تكلّ الأعضاء.

وقبل أن يستغرقه مثل هذا الشعور ارتفع واقفاً وأسرع إلى مسحاته يمتشقها من باطن الحفرة دون أن يزيح بصره عن الحصان الذي بدا أنه في حالة عذاب.

كان الحصان الطريح هامد الرأس، يفتح بين آن وآن عينين ساهمتين ويحرك بوهن شديد قائمة أو قائمتين كأنه يحاول أن يدفع بها شبح الموت.

وحاول الحصان، بلا طائل، أن يرفع بصره نحو الرجل الذي ركزت قامته فوق رأسه فشعر الرجل أن عناداً عارماً يستفيق في صلبه يتحول إلى غضب حار لا يمكن كبحه:

«الخيبة أنت. الخيانة أنت. ولكن آه كم أنت حبيب وعزيز!» وتقلصت كفا الرجل على العمود الأملس الصلب، وقبل أن تنفذ قوتها فيه، ارتفعتا به للأعلى بحيث أصبح لسان المسحاة في مواجهة الرأس، وبدون أن يترك للحصان فرصة كافية لرفع بصرٍ خامل نحوه، ابتدره بالمسحاة على رأسه فغاص لسانها فيه، ففاض خيط فقير من الدم لوّن الغرة البيضاء. ومع الضربة النجلاء اهتز الحصان هزة واحدة انفق فيها كل ما في ذخيرته من احساس وهمد بسكون.

ودون أن يحتوي حصانه أو يجهش ببكاء جديد، عاد الرجل أدراجه، بسكون حزين؛ نحو حفرته يتلمس قاعها.

ها هو قد وصل إلى طبقة الطين، وإن عليه أن يواصل الحفر قليلاً لكي يتيح للماء أن يتسرب إلى الأعلى، ولكن ما بال قوته تهمد ويتسلل إليه خدر لذيذ؟ كان يريد أن يواصل عمله، لكن رائحة الأرض الجديدة ورطوبة الماء في الأعماق القصية تدعوه اليها وتجذبه نحوها بحيث أنه، وفي وعي منه، قرر أن يستزيد من هذه الرائحة العطرة المشربة برطوبة الماء. كان يريد أن يستزيد من ذلك كلما زحف الخدر الثقيل، ولم يكن قد شعر ولو مرة واحدة في حياته بثقل جسده بمثل هذه الصورة الغريبة.

كان جسده ينشدّ للأرض والخدر اللذيذ يكتسحه فيشل أعضاءه بل يجعل كل خلية فيه تغرق في سبات.

كان النوم، الموت ينحدر إليه من أعماق قصية مجهولة ويصعد نحوه ويحيطه من كل جوانبه، في وقت كانت فيه عروق الماء الرفيعة الدقيقة تشق طبقات الأرض، لامعة مثل خيوط الفضة وتصعد إليه.

بغداد

- تتمة صوامت الصفحة ٧٦ -

هرسرل - ترجمة تيسير شيخ الأرض - دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٥٨ ص ٣٢٨.

(١٨) «ديوان ملامح من الوجه الانبادوقليسي». دار الآداب - بيروت - سنة ٦٩. قصيدة مرثية إنسان الشمس القديمة.

(١٩) ديوان (كتاب الأرض والدم) قصيدة عن الحسن بن الهيثم، سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث - بغداد وزارة الأعلام ١٩٧٢.

(٢٠) ديوان شهادة البكاء في زمن الضحك - دار العودة - بيروت ١٩٧٣.

(٢١) عن الحسن بن الهيثم - عذابات الأحجار. ديوان كتاب الأرض والدم.

(٢٢) تأملات ديكارتية ص ١٢٢.

(٢٣) شهادة البكاء في زمن الضحك.

(٢٤) شهادة البكاء في زمن الضحك.

(٢٥) أول الحلم آخر الحلم.

(٢٦) هيلدرلين وماهية الشعر ص ١٤٩.

(٢٧) نفس المصدر السابق ص ١٥٧.